خواطر مع التصوف الإسلامي

محمد البيومي عبد الواحد الشيخ

مقـــدمة :

إذا كانت الحضارة الإسلامية قد قدمت لنا العديد من الفلاسفة والمتكلمين فإنها قد قدمت لنا أيضاً نمطاً آخر من المفكرين يختلف في منهجه وأسلوبه عن منهج الفلاسفة والمتكلمين .

هذا المنهج يعد منهجا خاصا ، يقوم على التجربة الباطنية إنه يختلف عن المنهج الجدلي والعقلي الذي اختاره وسار فيه فلاسفة الإسلام فأقوال الصوفية تعتمد كل الإعتماد على تجاربهم الخاصة ، ولهذا كانت طريقتهم طريقة فردية ، ذوقية ، روحية ، فما من مذهب من مذاهبهم إلا ويمكن أن يعد على وجه ما ثمرة لما خضع له صاحبه من رياضيات ومجاهدات وما تعرض له من أحوال ومقامات :

وهذا يعني أن لهؤلاء الصوفية عالم خاص بهم ، إذ قد يذهبون إلى آراء لا يذهب إليها غير الصوفي نظراً لما يعتريهم من أحوال لا يعايشها ولا يتذوقها غير الصوفي بحيث كانت لغتهم ليست اللغة المعروفة المحددة ، بل هي لغة أخرى تعرف بالرمز والإشارة .

الرمز والإشارة بدل التصريح والعبارة .

إن الصوفية في عالمهم يفضلون التعامل بالرمز والإشارة ويؤثرون ذلك على التصريح والعبارة وسبب ذلك يكمن في أن المشاهدات والمكاشفات

لا يمكن أن يعبر عنها بالألفاظ والعبارات لمن ليس منهم يقول الإمام الغزالى :

« إنهم أرباب أحوال لا أصحاب أقوال إنهم يصلون إلى هذه الأحوال بالإلهام وهذا ما لا واسطة فى حصوله بين النفس وبين البارى عز وجل »(١)، وإنما هو كما يقول الإمام الغزالى :

« كالضوء من سراج الغيب يقع على قلب فارغ لطيف »(٢) .

أو كما يقول التهانوى :

« يقع بطريق الفيض أى بلا اكتساب وفكر بل هو وارد غيبى ورد من الغيب ولا يحصل به العلم لعامة الخلق لكن يحصل به العلم فى حق نفسه »(٣) .

ومن هنا لا تخضع المعرفة الذوقية فى طريقتهم لمقولات العقل ولا اللغة ولا المنطق المعهود لأن المعرفة عندهم لغتها الخاصة ومنطقها لما عرف لديهم من ذوق مرهف .

موقفهم من منطق أرسطو :

إن الصوفية كما قلت يرفضون كل لغة غير لغتهم وكل منطق غير منطقهم لأن المنابع تختلف بهذا اختلفت ، المناهج وإن اتحدت الغايات ، فهم يرفضون منطق أرسطو ومقولاته العقلية ، دليل هذا ما نطالعه فى شرح

---

(١) المنقذ من الضلال . الإمام الغزالى

(٢) المواهب اللدنيه . الإمام الغزالى

(٣) كشاف اصطلاحات الفنون . التهانوى

حكمة الإشراق ، إذ ترى تفضيلهم للأنوار الإشراقية للوصول إلى الله سبحانه .

فأصحاب المعلم الأول ، تعد حكمتهم ضعيفة القواعد ، والمتأثرون بفكر أرسطو — إذا كانوا قد رفضوا الحكمة الإشراقية ، الذوقية ، فإن مرد ذلك راجع إلى اشتغالهم بالفروع دون الأصول ، ولهذا حرموا من الوصول إلى المعرفة الصحيحة للوصول إلى الله سبحانه .

أما الصوفية فقد وصلوا إلى مقام المشاهدة لا بفكر ولا نظم دليل وقياس بل بأنوار إشراقية متتالية .

ويوضح ذلك ويؤيده ، الإمام الطوسى(١) ، وكذلك الكلاباذى(٢) .

فالله عند الصوفية لا يعرف بالعقل : قيل للثورى ، بم عرفت الله ؟

قال : بالله ، قيل ، فما بال العقل ؟

قال : العقل عاجز لا يدل إلا على عاجز مثله ، ومن قولهم « عرفت ربى بربى ولولا ربى ما عرفت ربى » .

العلم الصوفى :

إذا كان الفلاسفة وغيرهم يعتمدون فى علومهم على الحواس ثم العقل فإن الصوفى يعتمد على العبادة ، والزهد وخاصة فى المرحلة الأولى يقول ابن خلدون فى مقدمته :

« هذا العلم » يعنى الصوفى ، من علوم الشريعة الحادثة فى الملة ، وأصله

---

(١) اللمع — للطوسى

(٢) التعرف — للكلاباذى

أن طريقة القوم ، أى الصوفيه ، لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريق الحق والهدايه . وأصلها العكوف على العبادة والإنقطاع إلى الله تعالى والاعراض عن زخرف الدنيا وزينتها .

والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ، ومال ، وجاه . والانفراد عن الخلق فى الخلوة للعباده . وكان ذلك عاما فى الصحابة والسلف فلما فشا الإقبال على الدنيا فى القرن الثانى وما بعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا ، اختص المقبلون على العباده باسم الصوفية والمتصوفه»(١).

حول اشتقاق لفظ « الصوفى » :

اختلفت الآراء وتشعبت حول اشتقاق كلمة « الصوفى» ، ونطالع كتاب « التعرف لمذهب أهل التصوف »(٢) فنجده يذكر آراء حول سبب التسميه أى لم سميت الصوفية بهذا الاسم وعرفوا به .

رأى يقول : سميت الصوفيه «صوفيه» لصفاء أسرارها ونقاء آثارها» وقال « بشر بن الحارث » الصوفى من صفا قلبه لله ، وصفت لله معاملته .

ورأى آخر يقول : إنما سموا صوفيه ، لأنهم فى الصف الأول بين يدى الله عز وجل بارتفاع هممهم إليه وإقبالهم بقلوبهم عليه ووقوفهم بسرائرهم بين يديه .

وقال قوم : سموا صوفيه لأنهم كانوا يلبسون الصوف .

أو لقرب أوصافهم من أوصاف أهل الصفه الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ وكلمة « الصفه فيما يقول « نيكولسون » إشارة إلى أن التصوف

---

(١) مقدمة ابن خلدون

(٢) التعرف لمذهب أهل التصوف ، لأبى بكر محمد الكلاباذى

متصل بأهل الصفة . وقال « إنه اسم أطلق على بعض فقراء المسلمين فى صدر الإسلام وكانوا لا بيوت لهم فكانوا يأوون إلى الصفة التى بناها لهم الرسول ﷺ بالمسجد النبوى بالمدينة .

وبعد هذا نود إلى أن نشير إلى أن الأقرب إلى الصواب من هذه الآراء المتعددة أن لفظ « تصوف » مشتق من الصوف .

وإن كان الإمام القشيرى . يقول « ولا يشهد لهذا الإسم اشتقاق من جهة العربية ولا قياس . والظاهر أنه كاللقب .

ومن قال اشتقاقه من الصفاء . أو من الصفة فبعيد عن جهة القياس اللغوى وكذلك من الصوف لأنهم لم يختصوا بلبسه »(١).

وإذا كان هذا رأى القشيرى . فالجواب أن مجموعة من المؤرخين ترى أن هذا اللفظ مشتق من الصوف كابن خلدون(٢) يقول :

« والأظهر أن قيل بالاشتقاق إنه من الصوف وهم فى الغالب مختصون بلبسه لما كانوا عليه من مخالفة الناس فى لبس فاخر الثياب إلى لبس الصوف » ويعضد هذا الرأى . الكلاباذى ، يقول :

« إن من لبسهم وزيهم سموا صوفيه لأنهم لم يلبسوا لحظوظ النفس من افتخار وحسن منظر وإنما لبسوا لستر العورة الغليظ من الصوف »(٣) .

والصوف لبس الأنبياء ورمز الأولياء والخاصة كما يظهر ذلك فى أخبار الصوفية وآثارهم .

---

(١) الرسالة القشيرية ، لأبى القاسم عبد الكريم القشيرى .

(٢) مقدمة ابن خلدون ، ص١٠٦٣ مجلد ٣ .

(٣) التعرف . للكلاباذى .

وزيادة على ما تقدم أن المسلمين فى القرنين الأول والثانى الهجرى كان يغلب عليهم لبس الصوف وبخاصة من سلك منهم فى حياته طريق الزهد وأنهم كانوا يطلقون على الزاهد أنه لبس الصوف ، أى تزهد .

ويحكى صاحب كتاب التعرف :

« أن لباسهم كان الصوف حتى إن بعضهم كان يعرق فى ثوبه فيوجد منه ريح الضأن إذا أصابه المطر »(١) .

إطلاق بعض الأسماء على الصوفيه :

قد أطلقت بعض الأسماء على الصوفيه ولكل إسم سبب فى إطلاقه ويعرض صاحب كتاب التعرف هذه الأسماء :

١ — الغرباء . وذلك لخروجهم عن الأوطان وكثرة ترحالهم من مكان إلى آخر .

٢ — السائحون : لكثرة تجوالهم .

٣ — الجائعون : أطلق هذا الاسم عليهم أهل الشام وذلك لأنهم كانوا لا يتناولون من الطعام إلا ما يقيم أودهم كما قال ﷺ « بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه » .

٤ — الفقراء : وذلك لتخليهم عن الأمـــلاك : قيل لبعضهم : من الصوف ؟ قال الذى لا يملك ولا يملك يعنى لا يسترقه الطمع .

٥ — أهل النور : وذلك لتركهم الدنيا وزهدهم فيها . فالذى أعرض عنها وشغل بطاعة الله يصفو سره وينور الله قلبه .

---

(١) المرجع السابق .

قال ﷺ « إذا دخل النور فى القلب إنشرح وانفسح قيل وما علامة ذلك يا رسول الله قال التجافى عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله » .

فأخبر النبى ﷺ أن من تجافى عن الدنيا نور الله قلبه وقال ﷺ « لحارثه ، كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت مؤمنا يا رسول الله والحمد لله فقال ﷺ أن لكل قول حقيقة فما حقيقة إيمانك ؟

قال : عزفت بنفسى عن الدنيا فاطمأن نهارى . وأسهر ليلى وكأنى أنظر إلى عرش ربى بارزا ، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون : وإلى أهل النار يتضاغون فيها » .

فأخبر حارثه أنه لما عزف عن الدنيا نور الله قلبه فكان يرى ماغاب عنه بمنزلة ما يشاهده .

فعلم من هذا أن قلوبهم موضع نور وتجليات من الله سبحانه .

بعض تعريفات للتصوف :

للتصوف تعريفات كثيرة بعدد أنفاس العارفين نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر .

يقول الجنيد « التصوف . أن يميتك الحق عنك يحييك به أو أن تكون مع الله بلا هم .

وقيل . الدخول فى كل خلق سنى والخروج من كل خلق دنى .

وقيل : هو أخلاق كريمة ظهرت فى زمان كريم مع قوم كرام .

وقيل : استرسال النفس مع الله على ما يريد .

وقيل : الأخذ بالحقائق مما فى أيدى الخلائق .

قال الشيخ زروق رضى الله عنه « قد حد التصوف بوجوه تبلغ نحو الألفين وترجع كلها لصدق التوجه إلى الله تعالى ثم قال والإختلاف فى الحقيقة الواحدة إن كثر دل على بعد إدراك جملتها ، وكل من له نصيب من صدق التوجه كان له نصيب من التصوف »(١) .

دور الزهد فى النشأة الأولى للتصوف الإسلامى

إن الباحث فى نشأة التصوف الإسلامى يجب عليه أن يعرض لحركة الزهد ومكانتها فى نشأة التصوف وخاصة فى القرن الأول الهجرى .

إذ أن التصوف فى بدايته كان يتسم بالزهد أى ترجع نشأته فى الإسلام إلى حركة الزهد وذلك قبل أن تطغى عليه اتجاهات جديدة تتمثل فى الدراسات النظرية .

يقول « نيكولسون » فى معرض حديثه عن دراسة أصل التصوف ونشأته الأولى وتطوره :

« لقد احتفظت حركة الزهد العظيمة بطابعها الإسلامى إلى حد كبير بالرغم من أن فيها بعض النواحى الخارجة على روح الإسلام ، وربما كان من أهم صفاتها الإحساس الدينى العميق والشعور الغامر بالضعف الإنسانى والخوف الشديد من الله والتفويض التام له والخضوع لإرادته » .

وهذا المنهج العملى وهو الزهد والإقبال على العبادة يجعل المتصوف يختص بمواجيد . وأحوال ، ومقامات . يوضح ذلك مايقوله ابن خلدون فى مقدمته قال :

---

(١) ايقاظ الهمم فى شرح الحكم . لابن عجيبة الحسينى .

ولما اختص هؤلاء بمذهب الزهد ، والانفراد عن الخلق والإقبال على العبادة . اختصوا بمواجيد مدركة لهم ، وذلك أن الإنسان بما هو إنسان . إنما يتميز عن سائر الحيوان بالإدراك .

وإدراكه نوعان : إدراك للعلوم والمعارف من اليقين ، والظن والشك والوهم .

وإدراك للأحوال القائمة من الفرح ، والحزن ، والقبض ، والبسط والرضاء ، والغضب ، والصبر . والشكر وأمثال ذلك فالمعنى العاقل والمتصرف فى البدن ينشأ من إدراكات وإرادات وأحـــوال ، وهى التى يميز بها الإنسان .

وبعضها ينشأ من بعض كما ينشأ العلم من الأدلة .

والفرح . والحزن عن إدراك المؤلم أو المتلذذ به . والكسل عن الإعياء وكذلك المريد فى مجاهدته لنفسه وعبادته لربه ينشأ له عن كل مجاهدة حال هى نتيجة لتلك المجاهدة :

وتلك الحالة : إما أن تكون نوع عبادة فترسخ . وتصير مقاما للمريد .

وإما ألا تكون عبادة بل تكون صفة خاصة للنفس من حزن أو سرور ...

ولا يزال المريد يترقى فى المقامات من مقام إلى آخر إلى أن ينتهى إلى التوحيد والمعرفة التى تقرب من الغاية التى ينشدها ...

فالمريد لابد أن يترقى فى هـــذه الأطوار وترجع كلها إلى الطاعة والإخلاص وفى مقدمة كل ذلك الإيمان القوى بالله سبحانه :

وما الأحـــوال والصفات إلا نتائج وثمرات للمجاهدات النفسيه ومحاسبة النفس عند التقصير الذى يشعر به المريد.

من هذا يظهر أن طريقة التصوف كلها محاسبة للنفس على الفعل والترك والكلام فى هذه المواجد والأذواق التى تحصل من المجاهدات ثم يستقر المريد عند مقام ويترق منها إلى غيرها.

ثم لهم مع كل ذلك آداب مخصوصة بهم واصطلاحات فى ألفاظ تدور بينهم إذ الأوضاع اللغوية إنما هى للمعانى المتعارفه. فإذا عرض من المعانى ما هو غـير متعارف. اصطلحنا على التعبير عنه بلفظ يتيسر فهمه منه فلهذا اختص هؤلاء بهذا النوع من العلم الذى ليس يوجد لغيرهم من أهل الشريعة(١).

فظهر من هذا أن للقوم لغة لا يفهمها إلا من كان فى أحوالهم وصفاتهم بل كما يقول أهل البلاغـــة لـكل مقام مقال. «رضى الله عنهم ورضوا عنه»(٢).

ولعل من أبرز من يمثلون مرحلة الزهد فى النشأة الأولى للتصوف الإسلامى. الحسن البصرى. ورابعة العدوية.

أما الحسن البصرى فقد كان له منهجه الذى عرف به. فقد كان شديد الخوف من الله سبحانه وكان كثير البكاء حتى كأن النار لم تخلق له إلا فقيل له ألا تبشر يا أبا سعيد قال: من خوفك حتى تلقى مأمنك خير من أمنك حتى تلقى مخافتك»(٣)

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص١٠٦٧ بتصرف ٣٩٨، ٣٩٩

(٢) سورة البينة ٨

(٣) قضية التصوف د/ عبد الحليم محمود

ولكننا نود أن نشير إلى أن القرآن الكريم إذ بين لنا حقارة الدنيا فى بعض آياته إذا قورنت بالحياة الأخرى مثل قوله تعالى :

« اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا . ثم يكون حطاماً وفى الآخرة عذاب شديد ، ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور(١) » .

ليس معنى هذا أننا نترك جميع متعها بلا استثناء . ولكن القرآن خط المنهج الذى نتعامل به فى الدنيا وهو الإعتدال بلا تفريط ولا إفراط قال تعالى (يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد . وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين . قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة(٢) ، وقال سبحانه « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا(٣) » .

الغالب إذن على التصوف فى نشأته الأولى أو الدور العملى . هو الزهد والعبادة . ومحاسبة النفس . والخوف .

أما الجانب الفلسفى فى التصوف والذى يغلب عليه . المعرفة . والرياضة الروحية والفناء . وغير ذلك فلا توجد فى المرحلة الأولى من مراحل التصوف .

أما السيدة رابعة . فكان لها طريق عرفت به وعرف بها ألا وهو الحب الإلهى الذى ملك عليها جميع جوانبها .

---

(١) الحديد (٢٠) (٢) الأعراف ٣١ ، ٣٢

(٣) القصص (٧٧)

ولعل من خير الأبيات التى أنشدتها فى الحب الإلهى : تناجى الله سبحانه :

أحبك حبين حب الهوى ... وحبا لأنك أهل لذاك
فأما الذى هو حب الهوى ... فشغلى بذكرك عمن سواك
وأما الذى أنت أهل له ... فكشفك لى للحجب حتى أراك
فلا الحمد فى ذا ولا ذاك لى ... ولكن لك الحمد فى ذا وذاك

محمد البيومى عبد الواحد الشيخ
مدرس مساعد بالكلية